الناشئة عن هذه السيطرة القبيلة المسيطرة على فقدان طابعها المشاعي شيئا فشيئا ، وعلى فرز فئاتها العليا الممتازة ، والتي اكتسبت طابع الزعامة القبلية شبه الاقطاعية (١٠) ٠

في مختلف مراحل السيطرة العثمانية على البلاد ، سواء في فترة فتوتها او في فترة انحدارها وتفسخها ، كانت البلاد معرضة باستمرار للتهديد والهيمنة البدوية ٠ الامر الذي يفسر عدم تطور اقطاع محلي في مناطق شرقي الاردن ، بما في ذلك المرتفعات الشمالية ، تطورا متسارعا ومتكاملا ، كما هو الحال في سورية الشمالية او لبنان او فلسطين ، ولماذا كانت الاسر الاقطاعية في شرقي الاردن مضطرة ، من مواقع ضعفها ، للاعتماد في تمردها ضد السلطات العثمانية على الحكومات الاقطاعية المجاورة ، ولا سيما في فلسطين ، ومن ثم للخضوع لها (١١) ٠ ان تواتر موجات الغزو البدوي وفي فترات متعاقبة ، قد عرقل تكون المجموعات الآيلة نحو الاقطاعية او احبطتها كليا ٠ فضلا على ان الصراع بين الجماعات القروية المتجه نحو التكون الاقطاعي ، والاستعانة والتحالف مع البدو في

---

(١٠) لنلاحظ ان الغزو الذي يعكس السعي للاستئثار بفوائض الانتاج (الفائض الداخلي للفلاحين او الفائض الخارجي من التجار والعابرين على طريق الحج ، قد تعاقب وشكل ظاهرة قائمة منذ زمن بعيد وسبق الفتح العثماني للمشرق العربي ٠ ولنلاحظ ان عملية تحول زعماء القبائل الى اقطاعيين ، وتحول القبيلة الى الاستقرار والزراعة لم تحالفها ظروف مناسبة للتطور باتجاه صاعد ، بل كانت دائما مهددة بغزو قبائل فتية اكثر (بمعنى اقل تطورا) وبالتالي كثيرا وغالبا ما اخفقت القبائل الكبرى في الاستقرار في مناطق نفوذها وفي تحول زعاماتها او شيوخها الى اقطاعيين ٠ هذا هو حال قبيلة السرحان اقوى قبائل حوران في القرن السادس عشر ، التي تزعمت حلفا قبليا كبيرا « اهل الشمال » ، والتي اضطرت تحت وطأة هزيمتها امام السردية للرحيل جنوبا ٠ وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر استعادت القبيلة قوتها وسادها شيء من التحضر الزراعي ، ففي الجون وهو مركزها الرئيسي برزت سمات السيطرة القبلية ـ شبه الاقطاعية : بناء الحصون والقلاع والحدائق والمزارع ٠ لكن تحولها هذا هدده قدوم قبيلة عنزة من الحجاز ، التي دحرت ليس فقط السرحان وبني صخر وانما السردية وسائر حلف اهل الشمال ٠ الامر الذي عكس نفسه تفككا وضعفا على مجموع البلاد حتى اوائل القرن التاسع عشر حين تولى بني صخر زعامة هذا التحالف القبلي ٠ راجع فردريك بيك ، المصدر المذكور آنفا ، الجزء الثاني ، ص ٢١٧ ٠

(١١) كانت الزعامات الاقطاعية المتمردة على السلطات العثمانية في البلاد ترتبط مع الحكومات الاقطاعية المجاورة في [illegible]